

« المكتبة الإفريقية »

سلسلة :

من نصوص ودراسات في تاريخ إفريقيا والمغرب

تحقيق : فرحات الدشراوي

قضية اقريطش

في عهد المعز لدين الله

II

قضية اقريطش

في عهد المعز لدين الله

هذه وثيقة عمّا كان من صراع حادّ في عهد المعزّ لدين الله بين الدّولة الفاطمية بإفريقية والدّولة البيزنطية . وهي تبرهن عمّا كان يسعى اليه الخليفة الفاطمي من الهيمنة السّياسيّة بحوض البحر الابيض المتوسط قبل استيلائه على مصر في عهد إمبراطوري بيزنطة قسطنطين الثامن ورومانوس الثاني . وتحتوي هذه الوثيقة على أربعة نصوص من كتاب « المجالس والمسائرات » للقاضي النّعمان (م : 974/363) .

وقد درست هذه النّصوص باللّغة الفرنسيّة في مجلّة « Cahiers de Tunisie » عدد 26 — 27 سنة 1959 وإني أنشرها هنا لاعرف ببعض ما للكتاب من قيمة كبرى لمن يدرس تاريخ الدّولة الفاطمية بإفريقيّة .

وإني أعدّ « المجالس » للطّبع اعتمادا على النّسخة المخطوطة التي تفضّل شيخخي الاستاذ حسن حسني عبد الوهاب فسمح لي باستعمالها وزوّدني بما عوّدني به من جميل نصحه ووجّهني إلى تحقّقها وشجّعني عليها جزاه الله خيرا عن خير سعيه .

النصّ الاول

من ورقة 244 إلى ورقة 254

خطاب خاطب به المعزّ (ص) رسول طاغية الروم

قال : وقدم إليه (ص ع) بطريق من بطارقة الرّوم وأشرفهم رسولا عن طاغيتهم صاحب القسطنطينية بما أوجبه على نفسه من مغرم الجزية عن أرض قلورية كما يبعث بذلك لكل سنة وجاء منه بهدايا كثيرة من آنية الذهب والفضة مرصّعة بالجوهر وديباج وحرير وبرذون وغير ذلك من نفيس ما عندهم وبكتاب من مرسله يخضع فيه اليه ويرغب ويسأل ويطلب الكفّ عن حربه ويسأل المودعة وبعث بعدد كثير من أسارى أهل المشرق ما لم يكن قطّ قبل ذلك طاغية الرّوم بعث بمثلهم إلى ملك من ملوك المغرب ولا إلى أحد ممن مضى من الائمة (ص ع) قبل المعزّ (ص ع) ولا أن طاغية الرّوم يؤدّي خراجا ولا جزية عن أحد من أهل ملته إلى غيره (ص ع) فقبل ذلك الرّسول الارض مرارا بين يدي المعزّ (ص ع) ومثل قائما بين يديه فأدّى إليه رسالة مرسله ودفع إليه كتابه واستأذنه في إدخال هديته وذلك بعد أن وصل مال الجزية إلى عامل صقلية على الرّسم المقدم الجارى فأذن له أمير المؤمنين (ص ع) في إدخالها وأسعفه بقبولها وكان أكثر ما أدى اليه الرّسول عن طاغية الرّوم وما جاء في كتابه اليه سؤاله الهدنة المؤبدة على ما أجراه من الخراج والجزية على أهل قلورية وبأن يرسل رسولا من قبله ليسر بذلك ويفعل فيه ما يجب على مثله لمحبة بزعمه وميله فاجاب المعزّ (ص ع) رسوله عن ذلك بأن الدّين والشرعية يمنعان من الذي سأله من الهدنة المؤبدة لان الله (عج) إنّما بعث محمّدا رسوله (صلع) وأقام الائمة من ولده يدعون إلى دينه ويجاهدون من خالفه حتى يدخلوا فيه أو يعطوا لجزية عن يد وهم صاغرون داخلون في حكم إمام أهل الاسلام وذمته وأن المودعة إنّما تجوز لمدة معلومة على ما يراه إمام المسلمين صلاحا لهم وللدّين

ولو كانت مؤبدة لبطل الجهاد المفروض على العباد وانقطعت دعوة الاسلام وخولف حكم الكتاب وعرفه أنه مما ينبغي لمثل من كان في محلّ ملكه الذي أرسله الا يغيب عنه مثل هذا من شريعة من يخاطبه ويكاتبه والا يسئل ما لا يوجبه الشريعة لمن سألّه فاعترف العلج بذلك على مرسله وسأل الزيادة في مدّة الهدنة عنه فقال المعز (ص) جواب هذا في كتابنا المقدم معك قبل اليوم إليه أنّه ما دام على ما شرطناه عليه وأوجبه لنا على نفسه لم نبدئه... حتى ننبذ اليه عهده أو بعد أن تنقضي مدّة المودعة بيننا وبينه لا نخفر ولا تغدر كما تخفرون انتم وتغدرون وعدد عليه أشياء من ذلك فعلوها فاعتذر منها من ملكه بأن ذلك لم يكن من فعله فقال له المعز (ص) فاذا كان الامر على ما تصفه من ملكك أنّه يغلب على أمره ويعجز عمن خالفه وغلب عليه من أهل ملته فاي فائدة في مودعته إذا كان عاجزا مغلوبا وليكن هل لك وله في أن أعقد له ما يتفق معه على ما عقده على من يرى أنّه في غير مملكستي ممن يقابلني من جهة المشرق كابن حمدان وغيره فان خرجوا عمّا أعقده عليهم فلا عقد بيني وبينه فاما من حوته مملكستي وحدود طاعتي فقد علم وعلمت أنّهم أقدر على أهل دينه ومملكته وبلده لو أرادوا الخفر والغدر كابن حمدان فهل بلغه أر بلغك أن أحدا منهم تعدى لي فيما جعلته له أمرا وخالف شيئا منه فجعل العلج يعترف بذلك وبالفضل لو لي الله (ص) ويسأل ويرغب إليه فأعرض المعز (ص) عن جوابه عن ذلك وجعل يسأله عن كيف الحال بينهم وبين أهل طرطوس وابن حمدان في حروبهم ومعاملتهم اياهم في حديث أطاله وكل ذلك العلج يجيبه عما يسأله من ذلك عنه فنظر بعض من في المجلس إلى بعضهم كمن لا يدري ما مضى السّؤال عن ذلك والمفارقة فيه ثم عاود العلج في سؤال رسول يرسله المملكة وذكر له تواتر رسوله عليه وعلى آبائه قد أفضى الله (عج) بالامر إليهم وأنّه لم يمض رسول منه ولا منهم اليه فقال المعز (ص) أن أحدا من النّاس لا يرسل رسولا إلى أحد إلا الحاجة له إليه أو لامر يجب عليه ونحن بحمد الله فلا نعلم أن لنا إلى صاحبك من حاجة ولا له علينا أمر واجب فلماذا ترسل

إليه اللهم الا ان يكون أمر من أمور الدين ينبغي لنا مراسلة ومفاوضة فيه وهو من المباح في دينه ولكن نظن أنه يكبر عليه فان نحن أرسلنا فيه إليه فعلمت أنه يجيبنا فيه سهل عليه أن نرسل إليه رسولا كما سئل وسألت عنه فلو لا أن ذلك لله (عج) ولدينه لم نفعل ذلك ولا ينبغي لنا أن نفعله إلا بعد أن يتحقق عندنا أنه يجيب إليه لانا لا نرى أن نسأل أمرا وإن كان لوجه الله (عج) فنجيبه فيه ولان ذلك لو كان لكانت سوء عاقبته عليه ونحن لا نلزمك الجواب في ذلك عنه والقطع فيه عليه إن ذلك مما لا يلزمك ولا ينبغي لك ولكننا سنأمر بذكر ما نريد ذكره لك وتنصرف وتقف على ذلك منه فاذا علمت منه بالحقيقة أنه يجيب إليه عرفتنا ذلك عنه فيسهل علينا أن نرسل إليه ولو كان ذلك فيما حوته الدنيا بحذافيرها أو اشتملت عليه بأقطارها لما سهل علينا أن نرسل فيه رسولا من قبلنا ولكننا لما كان لوجه الله (عج) وابتغاء ثوابه سهل علينا ووجب لدينا فاستعظمه العليج القول في ذلك وأقبل على أمير المؤمنين بالمدح والشكر حتى خرج في قوله ذلك إلى الكفر والتشبيه الذي يعتقده فرد ذلك المعز (ص) عليه وتواضع لله (عج) كما يجب أن يتواضع له وعرفه ذلك ليعلم أنه لم يرضه من قوله وإن كان عند نفسه انما قصد به تعظيمه ورأى أن ذلك مما يجوز عنده ثم أمره (صلع) بالانصراف إلى المكان الذي انزله فيه فانصرف ثم عطف على من كان في المجلس كانه اطلع على ما كان في قلوبهم فقال لعل بعضكم أنكسر ما أطلنا سؤاله عنه عن أمرهم مع أهل المشرق ولم نرد بذلك منه الحديث والمذاكرة واكنني علمت أنه رسول قد لقن ما يقول وأوقف عليه وعلى ما يجيب فيه قد لعل من أرسله علم أنه سيسأل عنه فأتيناه من مكان نعلم أنه لم يتقدم إليه فيه ولم يعلم مرسله أنه يسأل عنه حتى أخذنا من قبله ما تقوم به حجتنا عليه من وجه كذا ووجه كذا وعدد وجوها كثيرة مما سمعناه جرى بينهما لم ندر أن في ذلك حجة حتى ذكره (ص) فاذا فيه حجة وكيدة لم يظهر إلى أحد ممن حضر إلا عند ذكره إياها وبيانه لها فقبلوا الارض بين يديه وأظهروا السرور بما وهب الله من التأييد له وأمره من العلم والحكمة به وكان ذلك عنه (ص)

بعد أن سألهم ما رأوه في مخاطبته إياه فيما خاطبه وما توهموه في مراده في ذلك فلم يكن عند أحد منهم علم من ذلك ثم سألهم هل فيما سمعوه من حجة يرون أنها تقوم عليه أو على مرسله فما علم أحد منهم ذلك فبعد ذلك قال ما قاله لهم مما ذكرته عنه (ص) .

النّصّ الثاني

من ورقة 411 إلى ورقة 416

فصل من كتاب كتّبه به المعزّ (صلع) إلى طاغية الروم في أمر أهل إقريطش

قال : وكان طاغية الروم قد رغب إلى أمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) في المودعة وبذل له على ذلك أموالا وكانت رغبته إليه في المودعة مدّة طويلة أو أبدية ان وجد ذلك فرأى الامام لما تبين له أن ذلك خير للاسلام والمسلمين وليستجمعوا فيقووا على حرب المشركين إن أجابه إلى مودعة خمس سنين ثم اتصل به بعد ذلك وقبل أن تنقضي مدّة المودعة أنّه أرسل الدّمستق الذي هو أقرب رجاله درجة اليه وأخصهم به في عدة من السفن كثيرة وجيوش ثقيلة حتى أناخ بها على جزيرة اقريطش وهم في دعوة بني الهامش : فلما حل بهم من ذلك ما لا قوام لهم به وعلموا أنّه ليس عند بني العباس .

العبّاس : نهضة ولا لديه نصرة أرسلوا مركبا فيه رجال من قبلهم مع وجهه من وجوههم إلى أمير المؤمنين المعزّ لدين الله (ص) يستغيثون به ويسألونه استنقاذهم وعانتهم فلم ير صلوات الله عليه وإن كانوا تنكبوا عنه أن يخيب رجاءهم عنده ولا أن يسلمهم للمشركين فأمر عندما اتصل به خبرهم وقبل أن يصل إليه رسولهم بالاخذ في الاهبة والعدّة ليكون نفوذ الاساطيل إليهم في أوّل

زمان الامكان ثم قدم الرسول عليه وأدى عنهم ما أرسلوه به إليه فرأى أن ينبذ إلى المشرك عهده كما أمر الله (تع) بذلك في كتابه إذ هو أمر على حربهم وأمر بكتاب في ذلك اليه واملاه على الكاتب بحضرة من بين يديه بكلام ما سمعت أجزل ولا أبلغ منه فقال بعد أن خيره بين أن يقلع عن حرب أهل اقريطش وبين أن ينبذ إليه عهده كما نبذ رسول الله (ص) إلى مشركي العرب عهدهم وأرسل ببراءة فقرأها في الموسم عليهم ولقول الله أصدق القائلين وأما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم ثم قال له في كتابه (ع م) ولا يرى أن دعوة أهل اقريطش قبل اليهم إلى غيرنا وقد أنابوا اليوم إلينا واستغاثوا بنا مما يوجب لك عندنا تمام المودعة بتركهم إليك وترك اعتراضك فيهم أن امتناع أهل الباطل من أهل الحق ليس بمزيل حقتهم وإن تغلبوا عليه دونهم بل هو لهم بتصيير الله (تع) إياهم فاقريطش وغيرها من جميع الأرض لنا بما حولنا الله منها وأقامنا له فيما اطاعنا منها ما اطاعنا وعصانا من عصى وليس بطاعتهم يجب لنا أن نملك ولا بعصيانهم يحق علينا أن نترك ولو كان ذلك لكان الأمر اليهم لا لله (تع) الذي حولنا ولا لنا أن شاؤا اعطونا وإن احبوا منعونا كلا أن ذلك لله الذي له ما في السموات وما في الأرض هو الذي اصطفانا وملكنا واعطانا ولو كان ذلك للخلق لما وسعنا فقال من امتنع منهم علينا ولا رد ما انتزعه بالغصب من أيدينا إذا أقدرنا الله على ذلك وبه قوانا فان قلت أنت غير ذلك وأنت ترى أن ما في يديك لك فقد كان رومانس تغلب عليك وعلى أبيك من قبلك ثم دارت لكما عليه الدائرة فان رأيت أن من احتجر شيئا وتغلب عليه فهو له دون صاحب الحق الذي ملكه فلم يكن لك ولا لأبيك القيام على رومانس ولا انتزاع ما صار إليه من بين يديه فهذه سبيل أهل الحق عندنا فان اعترفت لها فقد انصفت وإن جهلتها لم يكن جهلك إياها حجة على من عرفها وعهدك أن تماديت على حرب من اناب إلينا منبوذا إليك فانظر لنفسك ولاهل ملتك فانا مناجزوك وإياهم الحرب بعون الله لنا وتأييده ولا حول ولا قوة الا به .

النّصّ الثالث

من ورقة 416 الى ورقة 420

وفي مثل ذلك إلى صاحب مصر

قال : واستمدّ أهل اقريطش هؤلاء صاحب مصر وهم من أهل دعونه تجمعهم دعوة آل عباس ومراكبهم بخيرات بلدهم وأطعمتها تمير أهل مصر وهذاياهم تصل إلى عمالها فعجز عن مضرتهم وسئل من ينظر لامير المؤمنين فيما قبله في ان يكتب اليه (صلع) في اغاثتهم واستنقاذهم وأرسل قوما كانوا منهم قبله ليسألوا أمير المؤمنين (صلع) ويرغبوا اليه في ذلك ثم اظهر انه ينصرهم ورمى بعض مراكب في البحر لما اتصل به انكار العامة عليه للتخلف عن نصرتهم فكتب أمير المؤمنين المعز لدين الله (ص) إلى من يكاتبه بمصر جوابا عن كتابه اليه بذلك يخبره أنّه قد أمر باخراج الاساطيل واخذ في عدتها وكان فيما كتب به اليه ان قل لصاحبك ان الله سبحانه قد خولنا من فضله وأمرنا من معونته وتأييده بما نرى انا بحوله وقوته ونصره لنا واطهارنا على عدونا انا نكف ايدي الكفرة عما تطاولت اليه من حرب هذا الصّقع والايقاع باهله وقد انتهى الينا أنك اظهرت الحركة الى الجهاد وامداد هؤلاء القوم بمراكب من قبلك وأنت لعمرى بذلك اجدر لقربهم منك واتصالهم بك وجيرتهم بلدك وكونهم واياك في دعوة واحدة ولو اسلمنا فهم اليك وقعدنا عنهم لما كان لك ولا لهم علينا حجة في ذلك ولكننا آثرنا نصره امة جدنا محمد(ص) ولم نر التخلّف عن ذلك وقد رجونا له والقوا بانفسهم الينا فيه ونحن لا حول بينك وبين الجهاد في سبيل الله ولا نمنعك من تمام ما املت منه فلا يكن ما يتصل بك من انفاذ اساطيلنا يريثك عن الذي هممت من ذلك وان تخشى على من تبعث به وعلى مراكبك منا فلك علينا عهد الله وميثاقه انا لا نكون معهم الا بسبيل خير وانا نحلهم محلّ رجالنا ونجعل ايديهم مع أيدينا ونشركهم فيما أفاء الله علينا ونقيمهم في ذلك وغيره مقام

رجالنا ومراكيبك مقام أساطيلنا حتى يفتح لنا إن شاء الله ثم ينصرفوا إليك على ذلك أو يكون من امر الله وقضائه ما هو فاعله فاعلم ذلك وثق به منا ففي تظافر المسلمين على عدوهم واجتماع كلمتهم اعذار لدين الله وكبت لاعداءه فقد سهلنا لك السبيل والله على ما نقول وكيل فان وثقت بذلك ورأيت ايثار الجهاد فاعمل على ان تنفذ مراكيبك إلى مرسى طنبة من أرض برقة لقرب هذا المرسى من جزيرة اقريطش ويكون اجتماعهم مع اساطيلنا بهذا المرسى مستهل ربيع الآخر بتوفيق الله وقوته وتأييده ونصره وعونه والا ترى ذلك فقد ابلغنا في المعذرة إليك والنصيحة لك وخرجنا مما علينا إليك (ص) ونحن بحول الله وقوته وتأييده ونصره وعونه مستغنون عنك وعن غيرك وعلى عزم وبصيرة في انقاذ اساطيلنا ورجالنا وعدتنا وما حولنا الله اياه واقدروا عليه مما نرى بحوله وقوته نبلغ به ما نؤم اليه بذلك ونصمد نحوه فبالله نستعين وعليه نتوكل وعلى تأييده نعول وهو حسبنا ونعم الوكيل .

النصّ الرابع

من ورقة 421 الى ورقة 423

في بصيرة امير المؤمنين في جهاد المشركين

قال : ولما قدم عليه (ص) رسول أهل اقريطش أمر بإدخاله اليه . فلما مثل بين يديه قبل الارض مرارا وأدّى إليه عن القوم ما أرسلوه به من تضرعهم واستغاثتهم وسؤالهم ورغبتهم واسترحامهم وجعل يذكر له قدر البلد وموضعه من بلد الروم ومن مصر وأنه فرضة لهما وأن الله (تع) إن قدره على دفع المشركين عنه وملكه كان سبب فتح القسطنطينية والمشرق عليه ان شاء الله وعدد ما فيه من الآلات والمعادن وما يتهيأ به من انشاء الاساطيل وقربه من القسطنطينية ومن مصر في كلام طويل ذكره . فقال المعزّ (ص) : نحن بحول الله وقوته نبلغ

من تحقيق آمالكم وتصديق ظنكم فينا حسب ما أملتونا ورجوتموه وقد أمرنا بتجهيز الاساطيل عندما بلغنا مصيرك إلينا . ولو كان أهل بلدك عجلوا بيعثك لوجدنا أنه لم يكن أساطيلنا هذا الوقت إلاّ عندهم . ونحن نرجو أن الله إذ وفقهم الى التطارح إلينا أن يؤيدهم ويثبتهم الى أن تصل أساطيلنا إليهم ويستقدهم الله بذلك بمنه وفضله وبما عودنا من تأييده ونصره . وغرضنا في ذلك القيام بما أوجبه الله (تع) علينا من الجهاد لعدونا واستنقاذ من أناب إلينا من أمة جدنا ونصرتهم ومعونتهم .

وأما أغراض الدنيا فقد ملكنا الله (تع) منها وأعطانا ونحوّلنا ما يجاوز الآمال والغايات ويفوت الآماني والنهايات ونحن على ثقة من وعده إياه إرائنا الارض كما قال الله في كتابه وإظهارنا بحوله وقوته على جميع أعدائه . فطب نفسا وأقم الى أن تنصرف مع أصحابك في أساطيلنا وأمر بردّ رجلين من أصحابه مع رجال من قبله الى أرض إقريطش بجوابهم وبما عزم عليه من إغاثتهم ونصرتهم في أوّل وقت الإمكان من الزمان ان شاء الله (تع) .

فرحات الدشراوي